المعالم المسيحيّة المقدسيّة
بين العهدة العمريّة والاستراتيجيات التهويدية

عزيز العصا

مقدمة

يعود الوجود المسيحيّ في القُدْس إلى البدايات الأولى لظهور المسيحيّة التي نادى بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، إذ عاش في المدينة، وفيها تمّ تعذيبه على أيدي أعدائه وحوكم محاكمة باطلة ثمّ حكم عليه بالموت. استمرّت الدّعوة إلى المسيحيّة سرّيّة، وكان المسيحيِّون ملاحقون لا نصير لهم حتى بدايات القرن الرابع الميلادي، عندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين الدّيانة المسيحيّة أوائل القرن الرابع للميلاد، فزارت أمّه الملكة هيلانة القُدْس وشيّدت فيها عدة معالم دينيّة، أهمّها كنيسة القيامة.

منذ ذلك الحين والمسيحيِّون متواجدون في المدينة، خائفون أحيانًا وآمنون مطمئنّون أحيانًا أخرى، وبَنوا كنائسهم ومعابدهم التي كانت تتعرّض بين الحين والآخر لاعتداءات من قبل الأعداء القادمين إلى المدينة بهدف السيطرة عليها.

وعندما انتشر الإسلام في الجزيرة العربيّة، كانت المنطقة في حالة صراع وحروب دامية، وكانت القُدْس ميدانًا للصراع بين الرّوم والفرس. وفي عام (15هـ/ 638م)، جاء العرب المسلمون إلى مدينة القُدْس وهي عامرة بالمسيحيّة؛ سكانًا ومقدسات وأسواقًا وعمرانًا،

فاستلموا مفاتيحها سلمًا، وبقيت تحت الحكم الإسلاميّ حتى عام 1917م؛ إذ دخلها الإنكليز وعملوا على مدى ثلاثين عامًا من أجل إنشاء الدّولة العبريّة عام 1948م، التي اقتطعت نحو 86 % من المدينة المقدّسة، ثم استكملت السيطرة عليها عام 1967م.

سنتناول في هذه الدّراسة، باختصار، أوضاع المعالم والأماكن الدّينيّة المسيحيّة المقدسيّة منذ الفتح العمري، وما جاء في العهدة العمريّة، وصولا إلى الوضع الحاليّ تحت الاحتلال الإسرائيليّ، وما تتعرّض له من محاولات تهويديّة، ومخططات كامنة في عقل صانع القرار الإسرائيليّ يضمرها لتلك المعالم والأماكن الدّينيّة، تحرّكه معتقدات مفاهيم عقديّة وأيديولوجية، باتجاه تهويدها يومًا ما.

كنّا قد تعرّضنا في العدد السّابق من هذه المجلة «المقدسيّة» للعلاقة الإسلاميّة المسيحيّة عبر خمسة عشر قرنًا[1]، أما هذه الدّراسة فستركّز على الهجمة المبرمجة والمنظّمة التي تشنّها الدّولة العبريّة، بأدواتها – من منظّمات إرهابيّة وغيرها – وأجهزتها المختلفة على الوجود المسيحيّ في القُدْس، والصراع الّذي يعيشه المسيحيّون المقدسيّون مع دولة الاحتلال حفاظًا على معالمهم وأماكنهم الدّينيّة ومنجزاتهم الحضاريّة المتراكمة في هذه المدينة المقدّسة لنحو ألفيّ سنة ونيّف.

أحوال المعالم والمقدّسات المسيحيّة في القُدْس تحت الحكم الإسلاميّ - نظرة عامّة -

منذ انطلاقة الدّعوة الإسلاميّة في الجزيرة العربيّة، في أوائل القرن السابع الميلادي، كانت العلاقة بين المسيحيين العرب وأبناء عمومتهم العرب أصحاب رسالة التّوحيد الجدد، علاقة ودّ وتقارب، وهناك العديد من المشاهد والشّواهد والأحداث التي تشير إلى هذه الحقيقة وتؤكد عليها. ولذلك، نجد أن مسيحيي القُدْس بقيادة البطريرك صفرونيوس اشترطوا تسليم المدينة للرجل الأول في الدّولة الإسلاميّة؛ الخليفة عمر بن الخطّاب، الذي أكرمهم وكرّمهم بوثيقة مهمّة سمّيت «العهدة العمريّة»، حملت تواقيع الصف الأوّل من المسلمين العسكريين والسّياسيين: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف.

بالاطّلاع على «العهدة العمريّة» وقراءتها قراءة تحليليّة، نجد أنّها رسمت ملامح العلاقة الإسلاميّة المسيحيّة، في القُدْس وخارجها، القائمة على الأمن والأمان الذي أعطاه الفاتحون

المسلمون للمسيحيّين من سكان البلاد الأصليين. وبقيت هذه الوثيقة –السّياسيّة – هي الحكم الفيصل في هذه العلاقة على مرّ الزمن.

وأما بالنّسبة للوجود اليهودي في القُدْس، فإن الله تعالى يأمر المسلمين ألا يهدموا كنيسة ولا كنيسًا، ويأمرهم في المحافظة على حرّيّة الدّيانة والعبادة لأصحاب الدّيانات الأخرى. وعليه، فإنّ العهدة العمريّة تؤكّد أنّه لم يكن هناك كنس لليهود حين فتح بيت المقدس سنة (15هـ/ 636م)؛ إذ لو كان كنس لليهود وقتئذ لحافظ عليها عمر بن الخطاب[2].

بدأ المسلمون بحكم القُدْس، وهم يحافظون على الأماكن المقدّسة المسيحيّة من كنائس وأديرة ومزارات. فعندما فتح عمر بن الخطّاب رضي الله عنه المدينة كان فيها نحو (20) كنيسة وديْرًا من زمن الرّوم، نذكر منها: كنيسة القيامة، وكنيسة الجيسمانيّة (الجثمانيّة)، وكنيسة صهيون، وكنيسة مار يعقوب، وكنيسة المصلّبيّة، وكنيسة القدّيسة مريم، وكنيسة الصعود، ودير مار يوحنا المعمدان، ودير العذراء، وبطريركيّة ودير الرّوم الأرثوذكس ودير مار الياس... الخ[3] [4].

خلال الحقبة الأمويّة (41هـ/ 661م – 132هـ/ 750م) أبدى الخلفاء الأمويون احترامهم للمسيحيين المقدسيين ولأماكن عبادتهم، من كنائس وأديرة وغيرها، كما كان المسيحيّون يتمتعون بحرّيّة العبادة وإعمار أماكنهم الدّينيّة[5]. واستمر هذا الحال من الأمن والأمان بشأن المسيحيين وممتلكاتهم إبّان الحقبة العباسيّة. إلا أن الحاكم الفاطميّ «العزيز» (365هـ/ 975م – 386هـ/ 996م) تزوّج من روميّة نصرانيّة، فمنح أصهاره النصارى ميزات وامتيازات كبيرة، حتى إنه أقام على فلسطين وزيرًا قبطيًا. وعندما توفّي العزيز خلفه ابنه الذي حمل لقب الحاكم بأمر الله؛ متناقض الصفات، وفاقد الاتزان، وكل يوم في حال، فنجم عن هذه الخصائص مجموعة ممارسات بحق المسيحيين في القُدْس تتراوح بين أقصى العقوبات ومطلق الحرّيّة في العبادة[6].

وإبّان الحكم الصّليبيّ لم يَسْلَم المسيحيّون الأرثوذكس من قسوة الصليبيّين الكاثوليك وهدفهم الاستراتيجي في جعل المدينة كاثوليكيّة العقيدة؛ فألغوا الرئاسة الرّوحيّة الأرثوذكسيّة في القُدْس، وتمّ تعيين بطريركيّ لاتينيّ، وأُبعِد النصارى الشرقيون عن كنيسة القبر المقدّس وأعمل الفرنجة في رقابهم السّيف[7]. وبالإضافة إلى تحويل قبة الصخرة المشرفة والمسجد القبلي إلى كنيستين وإلغاء الطّابع الإسلاميّ للمدينة، قام الصليبيون بإنشاء

العديد من المنشآت الدّينيّة في القُدْس.

وعندما تمكّن صلاح الدين الأيّوبيّ عام (583هـ/ 1187م) من تحرير بيت المقدس قام هو ومن بعده من حكام الدّولة الأيّوبيّة بعدد من الإجراءات، منها[8]: سُمح لمسيحيّي بيت المقدس البقاء في بلدهم كأهل ذمّة، وردّ صلاح الدين للأقباط معظم أملاكهم والأديرة والكنائس التي كانت لهم قبل مجيء الفرنجة؛ إذ إنهم كانوا قد توقفوا عن الحجيج إلى القُدْس إبّان الاحتلال الصليبيّ، وسُمح لرجال الصحة من الصليبيين العناية بالحجاج المسيحيين. وعندما أصبح الكثير من المواقع والكنائس والمباني المسيحيّة التي أنشئت خلال فترة احتلال الصليبيين للمدينة خالية تمامًا، أمر صلاح الدين سنة (583هـ/ 1187م) بتحويل مبنى قريب من كنيسة القيامة يسمّى «دار البطرك» إلى خانقاه حملت اسم الخانقاه الصلاحيّة. كما أنه جعل كنيسة القديسة حنة مدرسة للشافعيّة.

أما فترة حكم المماليك فقد امتازت بالهدوء والاستقرار وعدم حدوث حوادث كبرى تؤثر على الأوقاف والملكيات والعمران المسيحي[9]. فكان من سلاطين المماليك من تَعاطفَ مع المسيحيّين وسمح بتوسِعة المعابد والكنائس والأديرة، كما فعل السلطان بن برقوق (عام 812هـ/ 1409م) عندما سمح بترميم كنيسة المهد ببيت لحم. وكان هناك سلاطين سلبيّين في هذا الاتجاه، كالظاهر بيبرس (حكم 658هـ/ 1260م – 676هـ/ 1277م) الذي أغلق كنيسة المصلّبة، إلا أنها فُتحت بعد وفاته بثلاثين عامًا بطلب من الإمبراطور البيزنطي، وكما فعل السلطان الأشرف برسباي عند إغلاقه كنيسة القيامة عام (825هـ/ 1422م)، وفتحها بعد سنتين[10].

بدت علاقة المسيحيّين بالدّولة العثمانيّة على ما يرام، منذ اللحظة الأولى لدخول فلسطين تحت الحكم العثمانيّ، فيما يتعلق بالأوقاف والوقفيّات وأماكن العبادة والمعالم المختلفة. فقد تمّ توثيق الأوقاف والوقفيّات المسيحيّة بأشكالٍ مختلفةٍ، ووجد الباحثون في سجلاّت المحكمة الشّرعيّة بالقُدْس كثيرًا من الوقفيّات المسيحيّة؛ الخيريّة والذُّرّيّة. وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان يتم توثيق الوقفيّات المسيحيّة في سجلاّت محكمة القُدْس الشّرعيّة، ثم أصبح يسجّل في دير الطّائفة نفسها إن كانت رغبة الواقف كذلك[11].

كما أبدت الدّولة العثمانيّة تساهلًا إزاء تعمير الكنائس والأديرة وترميمها؛ إذ سُمح بإعادة ترميم كنيسة القيامة، وطلبت الدّولة من المسلمين التّبرّع لإعادة بناء الكنيسة، وفي عام

1809م صـدر فرمان بنـاء على فتوى شرعيّة سـمحت لطوائف النصارى بإنشـاء الكنائس وتجديدهـا من واردات أوقافهم[12]. وفي أواخر القرن التاسـع عشر أصبح عدد الممتلكات المسيحيّة (144) كنيسة ودَيْرًا[13].

يتضح من ذلك أن دور العبادة المسـيحيّة من كنائس وأديرة في القُدْس تضاعفت لأكثر من (6) أضعاف خلال الحكم الإسلاميّ الكامل للمدينة.

بريطانيا والدّولة العبريّة تشتّتان المُلكيّات المسيحيّة

منـذ مغادرة العثمانيين اسـتلم البريطانيون زمام الأمور في فلسـطين منـذ عام 1917م، حتى عـام (1948م)، فيـما أطلـق عليه «الانتـدابُ البِريطـانيّ»، علمًا بـأن بريطانيـا كانت أعلنت عـن فلسـطين وطنًا لليهود! وعـلى هذه القاعدة شرعـت بحكم فلسـطين وتمهيدها لتكون وطنًـا آمنًا مريحًا لليهود كما ورد في إعلان بلفور. وسـنتناول فيـما يأتي موجزًا لأحوال المعالم والأوقـاف المسـيحيّة في القُـدْس خلال القـرن العشرين وحتـى الخمس الأول مـن القرن الحادي والعشرين.

شرعـت سـلطات الاحتـلال البريطـاني منذ سـنوات الاحتـلال الأولى، بسـنّ التّشريعات والقوانين بهدف السّير نحو تحقيق المخطّطات الموضوعة لصالح اليهود في فلسطين؛ فكانوا يتشـاورون مـع د.وايزمن رئيس المنظمة الصهيونيّة، الذي اعترض بشـدّة عـلى فتح الطّابو سـنة 1919م بحجّة أن قِسْـمًا كبيرًا من أراضي البلاد سـوف يتحوّل إلى أوقافٍ تُنتزعُ من يد الحكومـة. إلا أنّـه في عام 1920م صـدر قانون انتقال الأراضي، الذي ربـط انتقالها بموافقةِ المندوب السّاميّ؛ ممّا أدّى إلى تقييد إنشاء الأوْقاف في فلسطين ومن ثم توقّفها تمامًا[14].

وخلال الفترة 1917م – 1948م، حاولت بريطانيا إيهام المسـيحيّين الفلسـطينيّين بأنّها دولة مسيحيّة صادقة، واجبها الأوّل الاهتمام بمصالحهم وكيانهم وصيانة حقوقهم ومقدّساتهم! إلا أن المسـيحيين العـرب في القُـدْس استشـعروا خطـورة الـصّراع بـين العـرب من جهة، واليهود وحلفائهم من جهة البريطانيين من جهة أخرى، فكانوا ضمن الشـعب الفلسطينيّ الـذي جنّـد قـواه في مقاومة الخطر الداهم، فشـارك المسـيحيّون، لاسـيما رجـال الدّين، في هذه المقاومة بشـتّى السبل، وتمّ تشـكيل الجمعيّات الإسلاميّة المسـيحيّة لمعارضة السّياسة البريطانيّة اليهوديّة[15].

وإبّان النكبة التي مُني بها الشعب الفلسطيني سنة (1948م) طالت المعالم المسيحيّة كما الإسلاميّة إلى حدٍّ كبير. كما أن استباحة الأملاك والملكيّات المسيحيّة؛ من مساكن ومؤسسات ومحال تجاريّة... الخ، شملت كلّ ما وقعت عليه أيدي المحتلّين اليهود. ففي تلك الحرب هدّمت السلطات الإسرائيليّة عشرات الكنائس، في العديد من القرى والمدن الفلسطينيّة التي دُمِّرت، فور خروج أهلها منها[16]. ومن الأمثلة على اعتداءات الدّولة العبريّة الوليدة على الممتلكات المسيحيّة:

أولًا: احتلال وقصف وتدمير: في 31/ 5/ 1948، أصدرت لجنة من الاتحاد المسيحي في فلسطين بيانًا مهمًّا في القُدْس يستنكر التّدمير، وتدنيس حرمة الأماكن المقدّسة المسيحيّة في فلسطين. وناشد البيان جميع المسؤولين والعالم المتحضّر إجبار اليهود على احترام الأماكن المقدّسة والمؤسسات الدّينيّة، والكفّ عن جعلها قواعد عسكريّة وأهدافًا لعمليّاتهم. وأشار البيان إلى تعرّض نحو ثلاثين **من الأديرة والمؤسسات – منها مشافٍ ومدارس وسكن بطاركة ورهبان – إلى احتلال الصهاينة، منها ما تمّ تدميره – جزئيًا أو كليًا – و/ أو تحصينها واستخدامها كقواعد للهجوم على المدينة المقدّسة، مثل**[17]:

– دير القديس جورج (الأرثوذكسيّة اليونانيّة)، ودار العجزة «نوتردام دي فرنسا»[18]، والمشفى الفرنسي (مع تجاهل وجود راهبات القديس يوسف، والمرضى، وفي تحدٍ لعلم الصليب الأحمر، والعلم الفرنسي)، والمشفى الإيطالي الذي وُضع تحت حماية الصليب الأحمر[19]، والبعثة الرسوليّة، على الرغم من وجود علم الكرسي الرسولي، ودير الآباء البندكتيين الألماني، والمدرسة الإنكليزيّة على جبل صهيون، ودير القديس يوحنا، والأرثوذكسيّة اليونانيّة، ودير للراهبات (تدميره بالكامل تقريبًا).

– المدرسة الدينيّة (Ste. Anne) تعرّضت لقصف بقنابل الهاون، مما أدّى إلى تدمير الجدران وإصابة اللّاجئين الذين احتموا فيها، وتدمّرت أجزاء من كنيسة القديس قسطنطين وهيلانة المتاخمة لكنيسة القيامة، وقصف البطريركيّة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة بنحو 100 قنبلة هاون من قبل المهاجمين المتحصنين في دير الآباء البندكتيين على جبل صهيون[20].

– أدّى هجوم على كنيسة سانت مارك التابعة للسريان الأرثوذكس إلى قتل الراهب بيتر سافمي (سكرتير المطران) وجرح شخصين آخرين.

– كما دمّرت قذيفة هاون سطح دير رئيس الملائكة التابع للبطريركيّة القبطيّة، وسقطت قذائف هاون على الدير الفرنسيسكاني الكبير (القديس المنقذ) الذي يقع بالقرب من كنيسة القيامة، فألحقت أضرارًا في دار الأيتام، وأدّت إلى مقتل وإصابة أطفال احتموا فيه.

– سقطت قذائف هاون على البطريركيّة اللاتينيّة وألحقت أضرارًا في القصر البطريركي، وخصوصًا في الكاتدرائيّة، كما تعرضت البطريركيّة الكاثوليكيّة اليونانيّة لقذائف هاون وأدّت إلى أضرار بالمبنى وإصابة بعض الأشخاص.

ثانيًا: إقامة المنشآت الرّسميّة للدولة الوليدة على ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسيّة في غربيّ القُدْس[21]، التي تقدّر بنحو (520) دونمًا، مثل: مبنى البرلمان (الكنيست) المبني على أنقاض قرية الشيخ بدر، مقر رئيس الدّولة، ومقرّ الحكومة الإسرائيليّة، ومبنى وزارة التربية والتعليم، والمتحف... الخ[22].

ثالثًا: تدمير وتدنيس بعد النكبة: فقد واصلت السلطات الإسرائيليّة تدمير وتدنيس الأماكن المقدّسة المسيحيّة، منها[23]:

1. سيطرت القوات الإسرائيليّة على أديرة وكنائس مسيحيّة عدة على جبل صهيون في القُدْس.

2. تحطيم ونبش 14 قبرًا للبطاركة وتدنيس محتوياتها. وتحطيم جميع قبور المقبرة الأرثوذكسيّة اليونانيّة، كما تعرضت المقبرة الكاثوليكيّة على جبل صهيون لنفس الاعتداءات، فأخرجوا الجثث من المقابر، وبعثروا الأكفان ورفات الموتى في جميع أنحاء المقبرة».

3. عام 1961 قام متعصبون يهود بمهاجمة "شعائر دينيّة مسيحيّة"، وفي عام 1963م هاجم سبعون يهوديًا، معظمهم من طلاب مدرسة دينيّة، "مدرسة البعثة المسيحيّة الفنلنديّة في القُدْس"، وحطموا (30) نافذة من نوافذه وضربوا راعي المدرسة.

ويُجمل أبو جابر الموقف بقوله: إن أوقاف البطريركيّة الأرثوذكسيّة – وهي أكبر الكنائس رعيّة وأوقافًا – استهدفت من قبل الهيئات والسلطات (الحاكمة) منذ أواخر الحرب العظمى الأولى، وبشكل خاصّ منذ النكبة سنة 1948م، وأصبحت تستخدم كمواقع للاستيطان (اليهودي) في البلدة القديمة التي هي أم الكنائس بالنسبة إلى جميع المسيحيين

في العالم[24]؛ إذ رأى المسيحيّون فيها مركز العالم برمته، لذلك رسموا في الخرائط القديمة القُدْس في الوسط دلالة على مركزيتها[25].

وفي حرب حزيران 1967م بعد أن استكملت إسرائيل احتلال القُدْس وفلسطين، تعاملت الكنيسة الكاثوليكيّة مع الأمر على أن القُدْس الشرقيّة محتلة بطريقة غير شرعيّة، احتلالًا عسكريًّا، وتقع في هذا الجزء المحتلّ معظم الأماكن المقدّسة للديانات الموحدة الثلاث[26].

لقد تم في تلك الحرب الاعتداء على ممتلكات الأديرة المسيحيّة، حتى إن بطريرك اللاتين اضطر لإغلاق ثلاث كنائس في القُدْس بسبب وقوع انتهاكات فيها، ووقوع سرقة طالت تاج السيدة عذراء في القُدْس. وفي العام نفسه (1967م) أعلن مندوب اليونسكو أن «السلطات الإسرائيليّة اعترفت بضرب ممتلكات الأديرة وكنيسة القدّيس جورج وأسوار القُدْس بالقذائف»[27]. وهناك شهادات عديدة على التدمير الذي طال الممتلكات المسيحيّة المقدسيّة سنة 1967م، نختار منها وصف القس جيمس كيلسو[28] للضرر والتدنيس اللذين لحقا بممتلكات الكنيسة أثناء القتال، ومما قاله في مقالة نُشرت بتاريخ 21/ 7/ 1967[29]:

«أطلق الجنود الإسرائيليّون النار على الكاتدرائيّة الأسقفيّة تمامًا كما فعلوا في 1948م. دمّروا المدرسة الأسقفيّة للأولاد حتى تتمكن دباباتهم من اختراق القُدْس العربيّة. دمّر الإسرائيليّون ونهبوا جمعيّة الشبان المسيحيّة. كما دمّروا المشفى اللوثري الكبير الذي كانت تستخدمه الأمم المتحدة، بالإضافة إلى المركز اللوثري للمقعدين».

وتوالت الاعتداءات والانتهاكات خلال الفترة (1967 – تاريخه)، منها[30]: في سنة 1970م اعتدى الاحتلال على دير الأقباط، وأحرق المركز الدّولي للكتاب المقدّس على جبل الزيتون سنة 1973م، وأتبعوا ذلك بحرق أربعة مراكز مسيحيّة في القُدْس سنة 1974م. وفي عام 1982م أحرقت جماعة «كاخ» المتطرّفة كنيسة المعمدانيّة في القُدْس، وفي سنة 1983م زرع الاحتلال قنابل موقوتة في دور العبادة المسيحيّة في القُدْس، منها كنيسة للروم، وفي السنة نفسها قام مجهولون بمهاجمة دير تابع لراهبات ألمانيات في القُدْس. وفي 12 نيسان 1990م قامت مجموعة «عطاروت كوهنيم يشيفا» المتطرّفة باحتلال «دير مار يوحنا»، وفي عامي 1995م و1998م تعرضت كنيسة الجثمانيّة لاعتداءات مستوطنين.

وفي القرن الحاليّ (21) سجّلت المتابعات اليوميّة العديد من الاعتداءات «المبرمجة» على الممتلكات المسيحيّة، مثل[31]:

– عام 2007م، تكرّر حرق الكنيسة المعمدانيّة المذكور أعلاه.

– عام 2008م، اعتدت سلطات الاحتلال على المصلّين المسيحيين ومنعتهم من الوصول إلى كنيسة القيامة لتأدية شعائرهم الدّينيّة، وأتبع ذلك إقدام مستوطن على اقتحام كنيسة القيامة واعتدى على الرهبان، وعاث في الكنيسة خرابًا.

– عام 2009م، بدأت سلطة آثار الاحتلال بأعمال حفريّات وترميم في الجدار الغربيّ لكنيسة القيامة، دون علم الكنيسة أو التّنسيق معها.

دون أن يفرّق بين كنيسة وأخرى، سيطر الاحتلال على عقارات أرثوذكسيّة وكاثوليكيّة وسريانيّة في مناطق مختلفة من القُدْس؛ البلدة القديمة والضواحي والقرى المحيطة. وفي محاولة لرصد الاعتداءات الإسرائيليّة على المعالم المسيحيّة من كنائس وأديرة ومزارات وممتلكات عامّة وخاصة. وبشأن الكنيسة الأرثوذكسيّة – تمتلك قرابة ربع البلدة القديمة من القُدْس – نجد أن هناك سلسلة طويلة ومعقّدة من الطّرق، المباشرة وغير المباشرة، التي سلكها الاحتلال من أجل أن يتمكّن من ممتلكاتها، داخل المدينة وخارجها؛ تارة بالتزوير وتارة أخرى بالمصادرة أو بصفقات مع المطارنة اليونان الذين يسيطرون على البطريركيّة (الأرثوذكسيّة) والإعلان عنها كصفقات استثماريّة، أو الإيجار لمدة (99) عامًا، وهناك عروض بتجديد الاستئجار لمدّة 999 سنة بدلًا من 99 سنة. وجميع هذه الصّفقات تصبح بحكم البيْع في إسرائيل التي تتغيّر فيها القوانين والأنظمة حسب ملاءمتها للمخطط الصهيونيّ. وضمن هذا المفهوم تكون الكنيسة قد فقدت، وإلى الأبد، العديد من العقارات والممتلكات، منها[32]:

1) مقبرة الكنيسة الأرثوذكسيّة.

2) أراضي جبل أبو غنيم في القُدْس.

3) مكان معتقل المسكوبيّة كان مأوى للحجاج الأرثوذكس.

4) ساحة عمر بن الخطاب في القُدْس التي استحوذ عليها الاحتلال.

5) تحويل أراضي الأوقاف المسيحيّة في شارع الأنبياء بباب العمود إلى منتزهات وساحات للسيّارات.

6) هناك قطعة أرض بمساحة (25) دونمًا تسمّى "أرض الأنصاري"، قريبة من المسجد الأقصى المبارك، تتبع الكنيسة الأرثوذكسيّة، شرعت البلديّة بإنشاء "حدائق توراتيّة" عليها.

7) صادرت سلطات الاحتلال الإسرائيليّ أراضيَ وقفيّة مسيحيّة كثيرة قرب العيزريّة وأبو ديس - شرقيّ القُدْس؛ وهي الأراضي التي أقيمت عليها "مستعمرة معاليه أدوميم".

8) هناك العديد من الأراضي والمؤسسات والاستثمارات التابعة للكنيسة الأرثوذكسيّة المتوقّع سيطرة الاحتلال عليها.

وخلال الفترة (1967 - تاريخه) استمرت الاعتداءات المنظمة على الممتلكات المسيحيّة، من ترهيب وتهديد، وحرائق متعمدة، والهدم، وغير ذلك من الممارسات التي لا يتسع المجال لذكرها. كما رصدت الدراسات مصادرات استيطانيّة لتسعة أوقاف كنسيّة[33].

وعند البحث حول «المنظمات والحركات والجماعات المتطرفة في إسرائيل» وجدنا أنّ وكالة وفا قد رصدت (63) منظّمة، تتوزّع على استراتيجيّات وأهداف مختلفة، تغطّي الهدف الاستراتيجي الرئيس، وهو «القضاء على الوجود الإسلامي والمسيحي، على طول الوطن الفلسطيني وعرضه؛ في القدس وخارجها». وأما القدس فإنها تنفرد بإجراءات خاصّة تتعلّق بتهويدها بالكامل. وأمّا بالنّسبة لسنوات التّأسيس، فإن ما يزيد على خُمس هذه المنظّمات «الإرهابيّة» تأسّس بعد اتفاقيّة أوسلو التي سمّيت «اتفاقيّة السّلام» بين حكومة الاحتلال والفلسطينيّين، خاصّة خلال القرن الحادي والعشرين؛ خلال الفترة (2000م - 2015م)[34].

تتوزّع هذه المنظّمات، في غالبيّتها، على إقامة الهيكل المزعوم وتهويد المسجد الأقصى المبارك،، ولكن منها ما يكثّف جهده ضدّ الوجود المسيحيّ. أما البعد الفكري لهذه المنظّمات، فتتوزّع بين الصهيونيّين والمسيحيين الإنجيليين، واليهودية المسيحية الصهيونيّة. وأما الفئة المستهدفة لهذه المنظّمات، فهي فئة الشباب والأطفال؛ يتم تدريبهم وتمكينهم وتأهيلهم من أجل القيام بالمهمّات الموكلة إليهم[35].

وهذا يعني أن الدّولة العبريّة لم توقّع على الاتفاقيّة من أجل تنفيذ السّلام مع الفلسطينيّين، وإنما كخطوة «تكتيكيّة» يتمّ استثمارها من أجل تعريض الفلسطينيّين للمزيد من الموت

والتّشريد والترهيب ونهب ممتلكاتهم وسرقتها، وهذه هي الأدوار المنوطة بتلك المنظّمات.

هنا، نجد أنفسنا أمام ضرورة قصوى للإجابة على السّؤال الاستراتيجيّ المتعلّق بالأيديولوجيا التي تقود دولة الاحتلال، وهو: **هل يتساوى عداء الدّولة العبريّة للوجود الإسلاميّ مع عدائها للوجود المسيحيّ؟**

البعد الأيديولوجي للعدوان الإسرائيليّ على المعالم المسيحيّة

يتأكّد لنا مما سبق أنه إذا قُدّر للمشروع الإسرائيليّ النجاح، فإن المدينة المقدّسة ستصبح خالية من سكانها العرب، وستحوّل أماكنها المقدّسة إلى كنس ومواقع مقدسة لليهود بما في ذلك بناء هيكل سليمان المزعوم[36]. بذلك، يكون عداء المشروع الصهيونيّ غيرَ مقتصرٍ على المسلمين، وادّعاءات أصحاب هذا المشروع بالهيكل المزعوم مكان المسجد الأقصى المبارك، وإنما يستهدف الوجود المسيحيّ برمّته، وبنفس المستوى من العداء والعدوانيّة، إن لم يكن أكثر من ذلك.

ففي الآونة الأخيرة بدأ الصّهاينة يروّجون لمقولة «**الوجود المعماري للأديان السّماويّة الثلاث يشكّل عائقًا أمام تنمية مدينة القُدْس اقتصاديًا**»، وأنه لا بدّ من التّخلّص منه، فيقترحون نقل قبّة الصخرة إلى عكّا أو نابلس، وحائط البراق إلى صفد، وكنيسة القيامة إلى النّاصرة[37].

لدى البحث في نظرة الدّولة العبريّة إلى الوجود المسيحيّ في القُدْس، نجد أن من ينثر ادّعاءاته يمنة ويسرة ضد الوجود الشرعي الإسلاميّ في القُدْس، ينثره أيضًا ضد الوجود المسيحيّ الشرعيّ، من خلال الادّعاءات والتشكيكات الآتية[38]:

1) قبر المسيح عليه السّلام خارج السّور وليس داخل كنيسة القيامة:

مع بداية القرن التّاسع عشر، انبرى القس الإنجيلي الأميركي روبرت روبنسون Robert Robinson للتشكيك بصحة موقع كنيسة القيامة، التي تمثّل رمز الوجود المسيحيّ في مدينة القُدْس، واستند في تشكيكه إلى أن المسيح عليه السلام يهودي، واليهود لا يدفنون موتاهم داخل الأحياء السكنيّة، ولما كان القبر داخل سور المدينة ووسط السكان، كما يزعم الآثاريون اليهود، فإن موقع القبر غير صحيح وكذلك موقع البناء الذي يعلوه، وهو كنيسة القيامة، غير صحيح أيضًا.

وفي سنة 1867م، عزّز الجنرال البريطانيّ تشارلز جوردون (Charles Gordon) تشكيك

روبنسون عندما ادّعى أنّ صخرة الجمجمة (الجلجلة) ليست في موقع كنيسة القيامة، بل تقع في حيّ المصرارة – شمال باب العمود – في المكان المعروف "مقبرة الحديقة".

2) طريق الآلام مستحدث ولا وجود له أصلا:

وهناك تشكيك بـ"طريق الآلام"[39] الذي أصبح تقليدًا مسيحيًا ومقام على الجزء الواقع في الحي الإسلاميّ (9) كنائس. ويقوم التشكيك اليهودي على أن هذا الطريق والمحطات الواقعة عليه هي دعاوى مستحدثة؛ إذ لا يعقل تحديد هذه المحطات من خلال «أبنية متهدمة تقع في أزقة علاها الطمم». وهذا التّشكيك هو مقدّمة للتخلّص من تقليد دينيّ مسيحيّ، وهدم الكنائس التسع المقامة عليه.

3) إزالة الوجود المعماري المسيحي الكائن شرقي الحرم القُدْسي، أي على جبل الزيتون فهو، وإن لم يعلن عن التشكيك فيه، في حكم المزال، لأنه يتعارض مع طقوس العبادة اليهوديّة بعد إقامة الهيكل المزعوم مكان المسجد الأقصى المبارك. إذ يتطلّب الأمر إبقاء كامل المنطقة وحتّى البحر الميّت برّيّة؛ أي منطقة غير مأهولة، كما يتطلّب ممارسة طقس «عبادة العنز الشاردة»[40].

وهذا التشكيك ما هو إلا تمهيد لمعركة قادمة مع الوجود المسيحي برمته وليس المادي المعماري فقط، والمعركة وقوعها مرهون بنتائج المعركة الدائرة حاليًا مع الوجود الإسلاميّ بشقيه المعماري والبشري داخل المركز التقليدي وفي محيطه بصفة خاصة، والقُدْس بكاملها بصفة عامة[41].

الاستنتاجات والنتائج

يتبيّن من هذه الدّراسة التي تغطّي حقبة زمنيّة طويلة نسبيًّا، من القرن السّادس الميلاديّ حتّى القرن الحادي والعشرين، أن الوجود المسيحيّ في مدينة القُدْس متجذّر، ولا يمكن لأيّ كان، أو لأي قوة كانت المساس بهذا الوجود أو العبث فيه. فمنذ الفتح العمريّ حتّى نهاية الحقبة العثمانيّة كانت الممتلكات المسيحيّة؛ العامّة والخاصة، والأوقاف الخيريّة والذّريّة، المنقولة وغير المنقولة، تحظى بالرّعاية والاهتمام من رأس الدّولة (نظام الحكم القائم)، وقلّما تعرّضت للأذى أو التخريب من قبل منظومة الدّولة، وعندما يقع الأذى سرعان ما يتمّ تعديله وتصويبه تحقيقًا لما ورد في العهدة العمريّة التي كانت هي الفيْصل عند الخلاف والاختلاف. وكانت النتيجة، كما تبيّن من هذه الدّراسة، أن تضاعف حجم

الملكيات المسيحيّة من كنائس وأديرة وغيرها ستّة أضعاف ما كانت عليه عند الفتح العمريّ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى حالة التساهل والتسامح التي حظي بها المسيحيّون من الدّولة الإسلاميّة، خاصّة خلال القرن التاسع عشر إبّان الحكم العثمانيّ، ذلك القرن الذي بُدئ بفرمان صادر عن السّلطان العثمانيّ، بناءً على فتوى شرعيّة سمحت لطوائف النّصارى بإنشاء الكنائس وتجديدها من واردات أوقافهم.

وما أن انتهى الحكم العثمانيّ الذي أعطى الوجود المسيحي هويّته الخاصة به، جاء الحكم البريطانيّ الذي تمّ خلاله إدارة البلاد، من جميع النّواحي، بما يضمن إنشاء الدّولة العبريّة على أرضيّةٍ صلبةٍ، فشهد عام 1948م مغادرة يافطة «الانتداب البريطاني»، لتحلّ محلّها الدّولة الوليدة التي قامت على مبدأ «محو» الوجود الفلسطينيّ السابق، بغض النّظر عن الدّيانة، و«إنشاء» الدّولة العبريّة على أنقاضه، دون النّظر إلى الحقوق المشروعة لأصحاب الأرض الأصليّين. وعلى هذه القاعدة لاحظنا «استباحة» أيّ وجود مسيحيّ، من كنائس أو أديرة أو مزارات أو مؤسسات صحّيّة أو تعليميّة أو اجتماعيّة... الخ.

وعندما استقرّت الدّولة النّاشئة، وانتظمت مؤسّساتها، أخذت الاعتداءات على الملكيّات والمعالم والأوقاف المسيحيّة تتّسع، وتأخذ أشكالًا مختلفة، ظاهرها استئجار لفترات زمنيّة طويلة – انتقلت من 99 سنة إلى 999 سنة – وصفقات بيع وشراء، وباطنها سلب تلك الممتلكات وإخراجها من ملكيّة المؤسّسات المسيحيّة إلى ملكيّة الدّولة العبريّة، أو المؤسّسات والشركات المرتبطة بها. كما تبيّن أن الاعتداءات الأخرى ذات الأشكال العنفيّة؛ من خلال أجهزة الدّولة الشّرطيّة والعسكريّة، أو الهمجيّة من خلال الجماعات المتطرّفة والحاقدة على كل ما هو غير يهوديّ. وأما من حيث الفئة المستهدفة، فإن جميع الكنائس المسيحيّة، من مختلف المشارب والقوميّات تعرّضت لنفس الاعتداءات وبنفس القوّة؛ دون مراعاة أيٍّ منها.

وانتهت الدّراسة إلى مناقشة البعد العقديّ والأيديولوجيّ المحرّك للاستراتيجيّات التّهويديّة، فتبيّن أن هناك نظريّات ورؤى عقائديّة وفكريّة تحكم تلك التصرّفات، وجميعها تُنكر أيّ وجود لغير اليهود في القُدْس، خاصّة داخل سور البلدة القديمة. فتمّ التّشكيك في وجود الجوهر العمرانيّ المسيحيّ في مدينة القُدْس، ممثّلًا بكنيسة القيامة وطريق الآلام، ليضاف إلى التّشكيك القائم في الوجود الإسلاميّ برمّته؛ لينتهي الأمر بنفي الوجود غير اليهوديّ في القُدْس، لإتمام عمليّة التّهويد المعماريّ والبشريّ (الديمغرافيّ) للقدس كعاصمةٍ «أبديّة وموحّدة» للدولة العبريّة!

(Endnotes)

1 – العصا، عزيز (2020). القُدْس: خمسة عشر قرنًا من السّلام والتسامح. مجلّة المقدسيّة (تصدر عن جامعة القُدْس). العدد (5). ص: 167 – 174".

2 – صبري، عكرمة (2020). حقّنا في فلسطين. المؤلّف نفسه. الطبعة السابعة. ص: 26 – 27.

3 – الحنبليّ، مجير الدين (1973). الأنس الجليل في تاريخ القُدْس والخليل. مكتبة المحتسب. عمّان. الأردن. ج2. ص: 51، 170؛ شامية، فادي (2010). الممتلكات والأوقاف المسيحيّة في القُدْس. في: "دراسات في التراث الثقافي لمدينة القُدْس. تحرير: محسن محمد صالح. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات والحملة الأهليّة لاحتفاليّة القُدْس عاصمة الثقافة. العربيّة 2009. بيروت. لبنان. ص: 247 – 268"؛ داود، جورج (2013). الأوقاف المسيحيّة في القُدْس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. في: "مؤتمر بيت المقدس الإسلاميّ الدولي الرابع: الأوقاف الإسلاميّة والمسيحيّة في القُدْس تحت الاحتلال الإسرائيليّ. الجزء الأول. تحرير: محمود سعيد أشقر وخالد علي زواوي. وزارة الأوقاف الشؤون الدينيّة. رام الله. فلسطين. ص: 281 – 302". ص: 287.

وهناك فئات مسيحيّة أخرى انتشرت في المدينة، في أوقات لاحقة، مثل: اليونان، والسّريان، والأرمن، والأحباش، والأقباط، والكرج، والأوروبيين القادمين أثناء حروب الفرنجة (عن: أبو جابر، رؤوف (2010). الوجود المسيحي في القُدْس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت. لبنان. ط2. ص: 7).

4 – أبو جابر، رؤوف (2010). الوجود المسيحي في القُدْس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت. لبنان. ط2. ص: 7.

5 – Abu Assab, Nour (2014). The Umayyads' Attitude Towards the Christian Sacred Sites in IslamicJerusalem. Journal of IslamicJerusalem Studies 14: 27 – 76.

6 – العارف، عارف (1999): المفصّل في تاريخ القُدْس. مكتبة الأندلس. القُدْس. ط5. ص: 130 – 134.

7 – داود (2013). ص: 282.

8 – العثامنة، خليل (2006). فلسطين في العهدين الأيوبيّ والمملوكيّ (1187 – 1516). مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة. بيروت. لبنان. ص: 100، 122؛ العارف (1999). ص: 159، 173 – 181، 189 – 190؛ الصلّابي، علي محمد (2007). القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي: شخصيته وعصره. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. ص: 17 – 20؛ داود (2013). ص: 288؛ المهتدي، عبلة (2005). أوقاف القُدْس في زمن الانتداب البريطاني. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. عمّان. الأردن. ص: 224.

9 – العارف (1999). ص: 209.

10 – العثامنة (2006). ص: 223 – 227.

11 – المدنيّ، زياد (2010): "الأوقاف المسيحيّة في القُدْس وجوارها في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر الميلاديين (1112هـ/ 1700م – 1336هـ/ 1918م)". عمّان. الأردنّ. ط1. ص: 11 – 12.

12 – القضاة، أحمد (2007). نصارى القُدْس: دراسة في ضوء الوثائق العثمانيّة. مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت. لبنان. ص: 41.

13 – القضاة (2007). ص: 396.

14 – المهتدي (2005). ص: 61 – 65.

15 – أبو جابر (2010). ص: 129، 133.

16 – صالح، محسن (2011). معاناة القُدْس والمقدّسات تحت الاحتلال الإسرائيليّ. مركز الزّيتونة للدراسات والاستشارات. بيروت. لبنان. ص: 116.

17 – عيسى، حنا (2017). تدنيس وتدمير الأماكن المسيحيّة المقدّسة عن الفترة الواقعة (1948 – 2017). الهيئة الإسلاميّة المسيحيّة. رام الله. فلسطين. ص: 2 – 4.

18 – احتل اليهود المسلحون هذا المبنى بالقوة، واستبدلوا علم الصليب الأحمر بالعلم اليهودي، على الرغم من احتجاج القنصل العام الإيطالي. ثم استخدموا هذا المبنى لإطلاق النار على المدينة.

19 – تم تدميرها جزئيًا، ثم استخدموها قاعدة للهجوم على المدينة.

20 – دمرت القنابل دير القديس يعقوب ودير الملائكة وكنيستين، ومدرستين ابتدائيتين، ومدرستين دينيتين، والمكتبة. كما قُتل (8) أشخاص وجُرح (120) من بين الذين التجؤوا فيها.

21 – رحافيا، والطالبيّة ، وأبو غوش، ودير المصلّب وغيرها.

22 – شامية (2010). ص: 264؛ صالح (2011). ص: 121.

23 – عيسى (2017). ص: 4 – 5.

24 – أبو جابر (2010). ص: 55؛

25 – خضر، جمال (2009). الإرث العربي المسيحي في القُدْس. في "مؤتمر القُدْس العاشر. جامعة النجاح الوطنيّة. ص: 18 – 25". ص: 20.

26 – خضر (2009). ص: 24.

27 – شامية (2010). ص: 264.

28 – وسيط سابق في الكنيسة المشيخيّة المتّحدة وكان قد عاش في فلسطين سنوات عديدة.

29 – عيسى (2017). ص: 6.

30 – شامية (2010). ص: 264؛ أبو جابر (2010). ص: 155؛ عيسى (2017). ص. 6 – 9.

31 – صالح، محسن (2011). معاناة القُدْس والمقدّسات تحت الاحتلال الإسرائيليّ. مركز الزّيتونة

للدراسات والاستشارات. بيروت. لبنان. ص: 117 – 118.

32 – شامية (2010). ص: 255 – 264؛ أبو جابر (2010). ص: 154؛ صالح (2011). ص: 119 – 122.

33 – شامية (2010). ص: 264 – 265؛ فخر الدين، وتماري (2018). ص: 24.

34 – وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينيّة (وفا). المنظمات والحركات والجماعات المتطرفة في إسرائيل. انظر الموقع الالكتروني (شوهد في 04/ 04/ 2020): http://info.wafa.ps /ar_page.aspx?id=5032

35 – نفس المرجع.

36 – الهندي، عليّان (2009). مستقبل القُدْس الشّرقيّة وفق الرؤية الإسرائيليّة. في "مؤتمر القُدْس العاشر. جامعة النجاح الوطنيّة. ص: 28 – 51". ص: 20.

37 – العابد، بديع (2010). القُدْس: العمارة والهويّة. في: "دراسات في التراث الثقافي لمدينة القُدْس. تحرير: محسن محمد صالح. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات والحملة الأهليّة لاحتفاليّة القُدْس عاصمة الثقافة العربيّة 2009. بيروت. لبنان. ص: 121 – 158". ص: 133.

38 – العابد (2010). ص: 131 – 134.

39 – هو طقس مسيحيّ كاثوليكيّ تمّ استحداثه في بداية القرن التاسع عشر؛ وهو طريق يخترق الحيّ الإسلاميّ، الّذي سار فيه المسيح عليه السّلام من المبنى الّذي حوكم فيه، وهو "المدرسة العمريّة" الكائنة في الزّاوية الشماليّة الغربيّة للمسجد الأقصى المبارك، حتى المكان الّذي صُلب ودُفِن فيه وهو كنيسة القيامة.

40 – العابد (2010). ص: 125.

41 – العابد (2010). ص: 131.